

بسم الله الرحمن الرحيم نستروح عبق الإيمان، وبحمده وتسيحه نستمطر العون والتوفيق والرضوان، وبالصلاة والسلام على من أوتى جوامع الكلم، ونوايغ الحكم، وسوايغ النعم، نعطر جو الزمان والمكان.
أما بعد...

فإن هذا الموضوع الذى يعبر عنه عنوان هذا البحث مما ينبغي أن تكشف حوله الجهود قبل أن يستغلق فهم النص، أو يجمد الذهن على معنى ضيق أراد الله أن يكون واسعاً، أو يحاول العقل توسيع ما أراد الله محددًا.
- ذلك أننى ممن يرى أن الفصل التعسفى الذى حدث بين علوم العربية دون ربط معنوى يقف بالدارس على الفروق الدلالية بين أسلوب وآخر، وعلى السر فى هذا الاختلاف.. من أهم أسباب انصراف هذا الجيل عن تعلم العربية وتدوقها والتعمق فى أسرارها وخصائصها.

- كما أن من هذه الأسباب الاهتمام بعلم النحو على أنه قواعد جافة، يُمثل لها بأمثلة صارت أضحوكة فى بعض وسائل الإعلام من كثرة تردادها على ألسنة الحافظين لها دون ظهور أثر تطبيقى لها على الأساليب الفصحى التى تحرك المشاعر وتبين الحكم، وتأخذ بلب القارئ والسامع دون أن يدرك السر فى تراكيبها حتى يستطيع أن ينسج الدارس على منوالها.

- وليس بخاف على أحد أن أفصح هذه الأساليب وأروعها وأقربها إلى قلوب المؤمنين أساليب القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة؛ تلك الأساليب التى استنبط منها الفقهاء أحكام الشريعة، واختلفت وجهات نظرهم أحياناً فى فهم النص، ورتب كل منهم حكمه على هذا الفهم مستدلاً على فهمه باستعمال العرب للفظه ما فى معنيين اختار منهما ما رآه متسقاً مع السياق، أو مع نص آخر أو معتمداً على إمكانية فهم الجملة القرآنية أو النبوية مرتبطة بما قبلها، أو مستأنفة معنى جديداً تسمح به قواعد الفصحى، أو مفسراً لمعنى الجملة على الحقيقة أو على المجاز.

- وكثيراً ما ثار لدى المثقفين ثقافة مدنية سؤال عن سبب اختلاف الأئمة فى بعض الأحكام الشرعية، بل وكثيراً ما تعصب بعض المسلمين لرأى فى مذهب ما مندداً بالآراء الأخرى والمذاهب المخالفة لرأيه، بل ومجنداً كل طاقات دعوته فى توهين المذهب الآخر.. وفى ذلك تبديد لجهود الدعوة التى ينبغى أن تركز حول الأصول العامة التى لا خلاف حولها، والثوابت الراسخة فى ديننا؛ حيث إن الإسلام يسع جميع تلك الآراء ما دامت اللغة التى نزل بها كتابه تسيع هذا الفهم، ويحتمله التركيب.

- ورسولنا صلى الله عليه وسلم قد أرانا النموذج الأمثل فى فهم النص على حقيقته أو على مجازه فى حديثه المشهور حين قال للجنود بعد أن كفى الله المؤمنين القتال فى غزوة الأحزاب وأمر بالتوجه إلى بنى قريظة الخونة حيث قال: «لَا يُصَلِّينَ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرِيظَةَ» ففهم بعض الصحابة هذا الحديث على معناه الحقيقى بحيث إذا جاء وقت العصر قبل أن يصلوا إلى بنى قريظة امتنعوا عن الصلاة تنفيذاً لأمر رسول الله.. وفهم البعض الآخر أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقصد بنهيه هذا الإسراع فى الوصول إلى بنى قريظة لمباغتتهم وحين جاء موعد صلاة العصر صلوا فى الطريق.

ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعله الفريقان أقر كلا على ما فهم وما فعل.

لهذا وذاك أقدم هذه المحاولة: أشير فقط إلى ما فى دراسة العلوم العربية من أثر فعال فى الفهم الصحيح والمعتدل لوحى الله الخالد.

وليكن هذا البحث إشارة فقط وتمهيداً لدراسة التراث العربى فى مظانه ومراجعته وإضاءة لمسالك البحث وفهم النص. ومن الله وحده نستمد العون ونرجو النفع؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل.

تمهيد

قبل أن ندخل فى تفاصيل هذا البحث نستصحب بعض الحقائق التى تفيدنا فى فهم الأسس التى يبنى عليها ما يمكن استنباطه من نتائج توضح أهمية التعمق فى درس الفصحى وسيلة وحيدة للوصول إلى مراد الله من وحيه المبارك بقدر الطاقة البشرية:

1 - **الدرس اللغوى** المقصود ليس خاصاً بفقهاء اللغة ومعاجمها - كما قد يتبادر إلى الذهن - إنما المقصود به دراسة النص من جوانبه اللغوية المتعددة: دلالة لغوية معجمية، أو صرفية، أو نحوية، أو بلاغية؛ فكل ذلك له تأثيره الواضح فى الفهم والاستنباط؛ وهذه العلوم متكاملة لا يغنى أحدها عن غيره.

2 - النص الشرعى المقصود فى هذا البحث منحصر فى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وكلاهما - كما هو من البدايات - بلسان عربى مبين.

- 3 - هذا اللسان ما اختاره الله أداة لوحيه ووعاء له، إلا لتمييزه عن غيره من اللغات من حيث وفرة المواد اللغوية وتعدد معانيها واستخداماتها وتراكيبها وصيغها، مما يحقق البلاغ المبين إلى كل العالمين.
- 4 - في أثناء نزول الوحي كانت السليقة العربية والنبوغ في فنون الكلام الفصيح شعراً ونثراً سمة غالبية في البيئة العربية وبهذه السليقة أدرك العرب مرامي ومدلولات الوحي مما جعلهم يسجدون لبلاغته ويعجزون عن مجاراته حتى من قبل أن يؤمنوا به.
- 5 - عالمية الإسلام أتاحت لجميع الأجناس البشرية على اختلاف ألسنتها وألوانها وأوطانها أن يدخلوا في دين الله أفواجاً، وصار من حقهم أن يفهموا نصوصه وتعاليمه، ومن حيث إن لغاتهم تختلف عن العربية كان لابد لهم من تعلم لغة الوحي ليصلوا إلى ما يريدون.
- 6 - من أجل ذلك هرع علماء الإسلام منذ عصر الصحابة إلى تعقيد هذه اللغة وضبط مفرداتها المستعملة زمن الوحي، وسمات الأساليب والتراكيب العربية.. وبهذا نشأت كل العلوم العربية لخدمة هدف محدد هو الحفاظ على القرآن والسنة من التحريف أو الفهم السقيم أو التأثير باللغات الوافدة.
- 7 - في عهد أمير المؤمنين " عمر بن الخطاب " وبعد الفتوحات الإسلامية ظهر اللحن في ألسنة بعض المسلمين الذين دخلوا في دين الله ولغاتهم تختلف عن العربية، ومن ذلك ما روى عن أعرابي دخل المدينة وطلب من أحد القراء الأعاجم أن يعلمه القرآن فبدأ معه بسورة التوبة حتى وصل إلى قوله تعالى: (**وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ**) فنطقها القارئ بكسر اللام من " رسوله " فقال الأعرابي ذو السليقة السليمة: وأنا برئ من رسوله كما برئ الله منه ومن المشركين؛ فأمسك القارئ - الجاهل بلغة الوحي - بتلايب الأعرابي وذهب إلى سيدنا " عمر " مخبراً إياه بأن هذا الأعرابي قد برئ من رسول الله، فسأل " عمر " هذا الأعرابي فحكى له ما حدث؛ فقال له: " ما هكذا نزلت الآية يا أعرابي، إنها بضم اللام من " رسوله "؛ فقال الأعرابي وأنا برئ ممن برئ الله ورسوله منهم؛ وأساس هذا الفهم لدى الأعرابي أننا إذا نطقنا كلمة " رسوله " بكسر اللام كانت معطوفة على المشركين الذين وقعت عليهم البراءة كما تقول: عجبت من محمد وعلى، فالعجب منصب عليهما معاً؛ أما إذا قرنت الآية بالرفع فإن كلمة " رسوله " تكون بدءاً الجملة جديدة تقديرها: ورسوله برئ منهم كذلك. وخرج سيدنا " عمر " مرة فلقى شاباً يتبارون في الرمي فعاب عليهم طريقة رميهم، فقال شاب منهم: يا أمير المؤمنين نحن قوم متعلمين؛ فغضب " عمر " وقال: " لخطوك في كلامك أشد علينا من خطك في رميك ". ولهذا بدأ علماء الصحابة كأبي الأسود الدؤلي وسيدنا " علي بن أبي طالب " في وضع قواعد النحو للمحافظة على الإعراب.
- 8 - وحين قرأ بعض المتعلمين قوله تعالى: (**وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا**) بفتح التاء من " تنكحوا " رد عليه من يعرف مسار اللغة، والفروق الهامة بين الصيغ: ولو آمنوا يا بني لن نتزوجهم، فلا زواج بين الرجال والرجال؛ عليك أن تضم التاء لتفيد معنى التزويج لا التزوج؛ ذلك أن فتح التاء يقتضي أن الفعل مضارع للثلاثي: نكح، أما الضم فيجعله مضارعاً للفعل الرباعي: أنكح، والفرق بين اللفظين واضح. ومن هنا كانت الحاجة إلى علم الصرف.
- 9 - ثم تبع ذلك أن بدأت الشبهات تسرى بين بعض المسلمين تشكك في سلامة الأسلوب القرآني وألفاظه، ومن ذلك أن نافع بن الأزرق الخارجي حين رأى حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس يجلس في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم يفسر القرآن دخله الشك في قدرة هذا الغلام على تفسير كتاب الله، فجمع بعض الأسئلة التي رآها صعبة في مجال الكلمات الغريبة في القرآن، وبدأ يسأله عن معاني هذه الكلمات وحين يجيبه سيدنا عبد الله بالمعنى يسأله: وهل تعرف العرب ذلك في كلامهم؟ فيرد عليه ابن عباس بيت من الشعر العربي يؤيد ما قاله في تفسيره الكلمة، وذلك كله من منطلق أن القرآن نزل بلسان عربي مبين.. وسميت هذه الأسئلة واشتهرت بـ " مسائل نافع بن الأزرق " وقد تجاوزت مائتي مسألة.. وكان هذا سبباً في ظهور كتب غريب القرآن التي بدأت بها كتب المعاجم.
- 10 - ولما جلس أبو عبيدة معمر بن المثنى لدروس العلم في المسجد جاءه رجل يقول له: إن العرب حين تستعمل أسلوب التشبيه فإنها تشبه مجهولاً بمعلوم حتى يتضح المجهول فما بال القرآن يشبه مجهولاً بمجهول في قوله تعالى عن شجرة الزقوم: (**طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ**)؛ فنحن لم نر طلع الشجرة فهي مجهولة لدينا، ورؤوس الشياطين أيضاً مجهولة لنا حيث لم نر شيطاناً، فكيف وقع هذا في القرآن؟ فرد عليه معمر بأن العرب تكتفي بالصورة الذهنية عن الصورة المشاهدة، ورأس الشيطان صورته في الذهن العربي صورة كريهة مخيفة مرعبة، فشبّه به شجرة الزقوم،

كما فعل العرب حين شبهوا الرماح بأنياب الغول وهم لم يروا الغول في مثل قول الشاعر:

أَيَقْتَلْنِي وَالْمَشْرِفِي مَضَاجِعِي
* وَمَسْنُونَةٌ زَرْقُ كَأَنْيَابِ أَعْوَالِ

ومن هنا نشأ علم البلاغة لخدمة أساليب القرآن أيضاً.

11 - ولما كان الهدف واحداً لهذه العلوم تعاونت وتكاملت في فهم النص الشرعي، وأجمع علماء الشريعة وفقهاؤها أن تعلم العربية والتعمق فيها شرط أساسي لكل باحث في أي علم شرعي، ولجأ أئمة الاستنباط إلى تلك القواعد يستعينون بها على بيان أحكام الله، بل جعلوها أحياناً حكماً بين الآراء، ومرجعاً لبعض الأحكام، فكانت مباحث الألفاظ العربية - مثلاً - باباً رئيساً في علم أصول الفقه، وكان اشتراط أهل العلم في أي مجتهد أن يكون إمامه عميقاً بأسرار العربية، وكانت مقولات المفسرين في بداية كتبهم تبيهاً مسهباً إلى أهمية التعمق في العربية بعلومها المختلفة وسيلة لفهم كتاب الله؛ ومن أهم هذه العلوم: علم الغريب والمعاجم، وعلم الصرف، وعلم النحو، وعلم البلاغة والأدب.

ضرورة الدلالات الأربع

يرجع الأساس الذي بنينا عليه أهمية الرجوع إلى هذه العلوم إلى أن القارئ لأي نص عربي قد يصادفه لفظ لا يدري استعمال العرب له، فيلجأ فوراً إلى المعجم العربي ليعرف دلالاته اللغوية.. غير أن المعاجم العامة وبخاصة الكبيرة منها مثل " لسان العرب " تستوعب المعاني الواردة في اللغة بمختلف لهجاتها، وما ورد من شعرها ونثرها.. وقد يصعب على الدارس للنص القرآني تحديد المعنى المراد من خلال هذه المعاجم، فالأفضل له أن يلجأ إلى كتب الغريب بحيث إذا كان البحث عن معنى لفظ قرآني رجع إلى كتب: غريب القرآن؛ وإن كان في حديث نبوي لجأ إلى كتب: غريب الحديث؛ ومن أفضل هذه الكتب في غريب القرآن: " المفردات " للراغب الأصفهاني؛ و" معجم ألفاظ القرآن الكريم " لمجمع اللغة العربية؛ أما كتب غريب الحديث فمن أسرها كتاب " النهاية في غريب الحديث والأثر " لابن الأثير، و" الفائق في غريب الحديث " للزمخشري؛ ومن العلماء من جمع بين غريب القرآن والحديث مثل الهروي في كتابه: " الغريبين ".

ومع كل ذلك لا بد من إدراك السياق للنص عند تحديد المعنى المراد.

- وبعد أن يعرف المعنى اللغوي للمادة لا بد له أن يبحث عن الصيغة التي أتت عليها المادة، إذ لكل صيغة معنى يخصها، وعند معرفة الصيغة ومعانيها الواردة في اللغة ينضاف المعنى الصيغي إلى المعنى اللغوي للمادة؛ وستأتي أمثلة كثيرة توضح أن كل حرف يزداد على أصول الكلمة العربية لا بد أن يكون له معنى زائد يقصده البليغ، ويتكفل ببيان هذه الصيغ علم الصرف.

كما أن دراسته مهمة للغاية في كيفية تجريد الكلمة من زوائدها ليتمكن الدارس من الكشف على معناها في المعاجم لأن معظم هذه المعاجم تضع تصرفات اللفظ تحت المادة اللغوية المجردة.

فإذا شاء الباحث معرفة معنى الاستقامة مثلاً كان عليه أن يرجع إلى مادة: " القاف والواو والميم ".

وإذا أراد أن يبحث عن معنى التقوى كان عليه أن يبحث في مادة: " الواو والقاف والياء " وهكذا..

ومن مباحثه أيضاً ما يعرف به كيفية التأنيث والتذكير والتثنية والجمع والإمالة والوقف والإدغام وغير ذلك.

- وبعد أن يحدد المعنى اللغوي من كتب الغريب، والمعنى الصيغي من علم الصرف يأتي دور علم النحو في تحديد الموقع الإعرابي لهذه الكلمة ووضعها في الجملة التركيبية حتى لا ينسب حدث إلى من لم يقيم به.. ولا يخفى ما للعلامة الإعرابية في آخر اللفظ من أهمية بالغة في تحديد المعنى المراد، وستأتي أمثلة كثيرة لاختلاف المعنى باختلاف الإعراب.

وقد تنوعت كتب النحو من عهد " سيبويه " إلى الآن فمنها ما اختص بشرح القواعد بأمثلة من واقع المستعمل لدى

الدارسين، وهي المشهورة الآن في الدراسة التجريدية من أمثال شروح ألفية ابن مالك، وهذا النوع من الكتب لا

يصلح إلا للمتخصصين الحافظين لكتاب الله، كما كان الوضع في مناهج التعليم القديمة.

ومن هنا ما اختص بإعراب القرآن والسنة، وهو منهج تطبيقي للقواعد على النص الشرعي، وقد بلغت كتب الإعراب من الكثرة في مختلف العصور ما يعكس الاهتمام بكتاب الله مثل: " إعراب القرآن " للنحاس، و" مشكل إعراب القرآن " لمكي بن أبي طالب، و" البيان في إعراب القرآن " لابن الأنباري، و" معاني القرآن وإعرابه " للزجاج، و" معاني

القرآن " للفراء، وللأخفش، و" إملاء ما من به الرحمن " للعكبري وكل ذلك مطبوع ومنشور. وهناك لون آخر من الدراسة النحوية التطبيقية يتمثل في توجيه القراءات القرآنية نحويًا، سواء كانت قراءات متواترة - وهي القراءات العشر - أم كانت قراءات شاذة، فمن ذلك: " الحجة في القراءات السبع " لأبي علي الفارسي ولابن أبي زرعة، ولابن خالويه؛ و" الكشف عن وجوه القراءات السبع " لمكي؛ و" إعراب القراءات الشاذة " للعكبري، و" المحتسب " لابن جني.

ومن الدراسات النحوية الطريفة ما يتعرض لرد الشبهات التي أثارها الملحدون في أسلوب القرآن الكريم والسنة النبوية ومن ذلك: " تأويل مشكل القرآن " لابن قتيبة، و" مشكلات الجامع الصحيح " لابن مالك، و" مغنى اللبيب عن كتب الأعراب " لابن هشام، و" البرهان في علوم القرآن " للزركشي، و" نتائج الفكر " للسهيلى، و" بدائع الفوائد " لابن قيم الجوزية.

- وحتى يتم الوضوح والبيان للأسلوب العربى لابد من معرفة سياق النص وما لحقه، وتعرض لهذا كتب: " أسباب النزول " للسيوطي وغيره، وكتب البلاغة التي تعنى بمقتضيات الأحوال وأسرار التراكيب في التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب والمساواة، والحقيقة والمجاز، والقرائن، والمحسنات البديعية؛ ومن أفضل كتبها: " أسرار البلاغة ودرائل الإعجاز " للإمام عبد القاهر الجرجاني وكتاب " التلخيص وشروحه " للخطيب القرويني.

- وفي كتب التفسير عناية بهذه المباحث وإن كان بعضها يركز على المباحث النحوية بحسب تخصص المفسر كما في " البحر المحيط " لأبي حيان، و" الدر المصون " للسمين الحلبي، ومنها ما يعنى بالمعاني البلاغية ك" تفسير الكشاف " للزمخشري، و" تفسير أبو السعود " و" المحرر الوجيز " لابن عطية، ومنها ما يعنى بالأحكام واستنباطاتها من النص مثل " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي وهكذا.

أهمية الكشف عن المعنى اللغوى

من المهم جداً التنبيه إلى أن القرآن والحديث قد يرد فيهما اللفظ الواحد مستعملاً في أكثر من معنى، ضرورة مراعاتهما للهجات المختلفة، حيث نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكلم كل وفد من وفود العرب بلهجته؛ وقد سبق أن أشرنا إلى أن الأفضل للدارس - الباحث عن معنى لغوى للفظ شرعى - أن يرجع إلى كتب الغريب وليس معنى ذلك أن المعاجم اللغوية لا تفيد الباحث عن المعنى المستعمل في النص الشرعى، ولكن بصعوبة تتدرج من المعاجم الصغيرة إلى المعاجم الكبيرة.

ومن أيسر هذه المعاجم " المصباح المنير " للفيومي إذ يعنى بالألفاظ الشرعية وهو يسير على طريقة الهجاء الألف بائى، بمعنى أنه يقدم ما أوله همزة على ما أوله باء، ثم على ما أوله تاء، بحسب الترتيب المشهور للحروف العربية، كما يقدم فيما أوله همزة ما ثانيه همزة على ما ثانيه باء، على ما ثانيه تاء، وهكذا إلى حرف الياء؛ وكذلك " المعجم الوسيط " لمجمع اللغة العربية.

ومن المعاجم ما يسير على طريقة القافية مثل: " القاموس المحيط " و" لسان العرب "، و" الصحاح " للجوهري، بمعنى أنه يرتب الكلمات بحسب الحرف الأخير منها فيقدم ما آخره همزة على ما آخره باء، فمثلاً كلمة " صمد " نجدها في " المصباح المنير "، و" المعجم الوجيز "، و" المعجم الوسيط "، و" مختار الصحاح " فى باب الصاد فصل الميم؛ ونجدها فى " القاموس "، و" اللسان "، و" الصحاح " فى باب الدال فصل الصاد. وحتى لا يكون الكلام نظرياً يتوه فى عالم العموميات نتعرض لبعض الأمثلة من النصوص القرآنية ليتبين صدق ما نقول من أهمية الكشف على المعنى اللغوى ومعرفته بدقة قبل فهم الآية:

1 - توقف ترجمان القرآن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما - مع ما عرف عنه من قوة الحافظة وإلمامه الواسع بالشعر العربى - عن الإدلاء برأيه فى معنى قوله تعالى: (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) فهو يقول: لم أفهم معناها إلا بعد أن سمعت ابنة ذى يزن وهى تقول لخصمها: تعال أفتاحك، فعلمت أن الفتح مستعمل عندهم بمعنى الحكم والقضاء، وعلى هذا فالمعنى: ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين.. وعلى هذا أيضاً نفهم قوله تعالى: (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ) ؛ ذلك أنه يوم الحكم والقضاء بين الناس، لا بمعنى فتح الأبواب ولا فتح الأمصار.

- 2 - توقف أيضاً سيدنا عبد الله بن عباس في معنى قوله تعالى: (فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) حتى سمع رجلاً يخاصم آخر على بئر فيقول له: أنا فطرتها، بمعنى أنه هو الذي بدأ حفرها دون سابق له
- 3 - توقف سيدنا " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه - بالرغم من درايته الكبرى بالشعر العربي - في معنى التخوف في قوله تعالى: (أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوْفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) في سورة النحل حتى قام بعض الصحابة فقال: هذه لغتنا يا أمير المؤمنين: التخوف عندنا التَّقْصُصُ، أي أن الله يعدد احتمالات العقاب في الدنيا للماكرين، إما بخسف الأرض بهم، وإما بإتيان العذاب الماحق من حيث لا يحتسبون، وإما بأخذهم وهم يتقلبون في منامهم أو في معاشهم، وإما بأخذهم بالتدريج: ينقص منهم النعم شيئاً فشيئاً حتى يهلكوا.
- 4 - ورد اليأس في القرآن الكريم بمعنى الإحباط والقنوط وعدم الرجاء مثل قوله تعالى: (إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) وقوله: (أَوْلَيْتَكَ يَسُوءًا مِنْ رَحْمَتِي) وقوله: (وَإِنَّ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤُوسٌ قَنُوطٌ) ؛ لكن هناك آية ورد اليأس فيها بمعنى العلم على لهجة من لهجات العرب وذلك في قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا) ومعناها: أفلم يعلم.
- 5 - قوله تعالى: (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) اختلف الفقهاء في حكم التوجه إلى الكعبة المشرفة هل الواجب تحرى عين الكعبة ؟ أو يكفي التوجه ناحيتها ؟ وهل على من يقيم خارج مكة أن يتحرى أيضاً عين الكعبة ؟ أو تكون قبلته مكة نفسها ؟ أو المسجد الحرام كله ؟..
- وبعد اتفاقهم على أن من يكون في المسجد الحرام - ويمكنه رؤية الكعبة - يجب عليه أن يتجه إلى الكعبة نفسها، بحيث لو انحرف عنها بطلت صلاته.. جاء خلافهم فيمن هو خارج المسجد الحرام، وانبنى الخلاف على الدلالة اللغوية لكل من كلمة " شطر " وكلمة " المسجد الحرام "، إذ ورد الشطر في اللغة بمعنى النصف، وبهذا أخذ الفريق القائل بوجوب تحرى عين الكعبة ومنتصفها.. كما ورد الشطر بمعنى الجهة، وبه أخذ الفريق الآخر الذي يرى الاكتفاء بالتوجه ناحيتها.
- كما أن كلمة المسجد الحرام أطلقت في القرآن على المسجد نفسه، وعلى مكة كلها، وعلى الحرم كله، ومن هنا قال بعض الفقهاء من الصحابة والمجتهدين: إن الكعبة قبله من في المسجد، وإن المسجد قبله من في مكة، وإن مكة قبله من بخارجها من الحرم، وإن الحرم قبله لأهل المشرق والمغرب؛ ووضح أن قوله تعالى: (ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) قد ورد فيه لفظ المسجد مراداً به ما حول المسجد حتى المواقيت.
- 6 - في قوله تعالى: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) لو فسرنا " نقدر " هنا بمعنى نستطيع لكان في إيمان سيدنا يونس خلل، إذ كيف يظن نبي ورسول أن الله عاجز عن إدراكه؛ ولكن لو رجعنا إلى المادة اللغوية لوجدنا أن الفعل هنا مستعمل بمعنى التضييق أي ظن أن لن نضيق عليه، لأنه خارج الدعوة إلى الله في مكان آخر، بعد أن رفض قومه الاستجابة له؛ غير أنه خرج دون إذن من ربه، ومن هنا ضيق عليه في بطن الحوت؛ وبهذا المعنى ورد قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) وقوله تعالى: (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ).
- على أن بعض النحاة قد فهم الفعل " يقدر " في آية ذى النون بمعنى: يؤاخذ لأن المؤاخذه مبنية على القدرة.
- 7 - في قوله تعالى: (وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ) ووردت كلمة " عرضة " في اللغة بمعنى كل شيء اعترض ومنع، كما وردت بمعنى الشيء المعرض المبتدل بكثرة؛ والآية صالحة لكلا المعنيين على أساس أن الله ينهي أن يُحلف به على منع خير، كصلة رحم مثلاً ثم يحتج الحالف بأنه لو لم يحلف لوصل رحمه.. كما أنه ينهي عن كثرة الحلف بالله كما ذمه في آية أخرى في قوله: (وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَالٍ مَهِينٍ)
- 8 - قد بين المعنى اللغوي الحكمة في اختيار القرآن لفظاً معيناً له ظلال، أو له إشارة إلى حكم، أو ضابط حكم، ومن ذلك قوله تعالى: (فَأَمَّا تَثَقَفْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ) فقد اختار لفظ " تثقف " بدل " تجد " أو " تلقى "، وفي ذلك حكمة؛ إذ كلمة " ثقف " تعني: وجده بحيلة وذكاء ودهاء، فكأن الآية باختيارها هذا اللفظ توحى للمسلمين أن يستعملوا الحيل والفتنة؛ ووضع كل الاحتمالات لضبط هؤلاء اليهود وهم مختبئون خلف حصونهم، أو خلف الغابات، فإن من طبيعتهم الجبن كما قال سبحانه: (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ) .

9 - ومن ذلك اختيار لفظ " القنوت " في وصف المرأة الصالحة، بدل لفظ الطاعة لأن القنوت هو الطاعة في خضوع، ومن المفروض شرعاً أن تكون المرأة قانته لله دائماً، ولأبيها قبل زواجها، ولزوجها بعد خروجها من بيت أبيها، فالقنوت وصف دائم لها، ومن هنا جاء قوله تعالى: (**فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ**) وقوله: (**وَمَنْ يَقْنُتْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ**) وقوله مخاطباً نساء نبيه حين بدأ من بعض نسائه تدلل وتذمر: (**عَسَى رَبِّهٖٓ إِن تَطَلَّكَنْ أَنَّ يُّدْبِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُمْ مَّسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ**) ، وقوله عن مريم: (**وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ** .)

10 - ومن ذلك اختيار كلمة " الفسق " بدل " الخروج " لأن الفسق في اللغة خروج إلى التهلكة، تقول العرب حين يرون نضج البلح على الشجر، يحثون صاحبه على جنيه قبل أن يفسد: فسقت الرُّطبة عن قشرها - ويقولون: فسقت الفأرة عن جحرها، لأن الرطبة إذا انخرمت قشرتها تعرضت للميكروبات ففسدت، والفأرة إذا خرجت من جحرها تعرضت لأعدائها فأكلتها.

11 - ومن ذلك قوله تعالى: (**يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَا**) بدل: يزيل أثره في زيادة المال، لأن المحق فيه إشارة إلى الإزالة الكلية للأصل والربح معاً.

12 - ومن ذلك استعمال كلمة " الصلاة " بدل: الدعاء أو الانحناء، لأن في الصلاة إشارة إلى ما كان يحدث من العرب حين يلتقون بعظيم، ينحنون له إكباراً وإجلالاً، وحين يلتقون ببيتيم أو مريض ينحنون له إشفاقاً وحناناً.. فاستعمل القرآن لفظ الصلاة المأخوذ من الصلا وهو واحد الصلويين المحيطين بفقرات الظهر، ليدل على الصلاة لله خضوعاً وتعظيماً، والصلاة على رسوله أو على الجنازة حناناً وحباً وإشفاقاً.

13 - قوله تعالى: (**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**) الحكمة في معناها اللغوي مأخوذة من حكمة الدابة، أي لجامها الذي يتحكم في سيرها.. ومن هذا المعنى اللغوي قيل عنها إنها: وضع الكلمة المناسبة للشخص المناسب في الوقت المناسب، لأن راكب الدابة إذا رأى أمامه خطراً حوّل وجهه فرسه إلى طريق آمن، أو توقف بالكلية. الأثر المعنوي لمعرفة الصيغ

مثل علماء الصرف المادة اللغوية المجردة بالذهب المذاب: يوضع في قوالب مختلفة فتظهر منه أشكال متعددة، فهذا " قرط " وتلك " أسورة " وهذا " عقد " وذاك " خاتم " بحسب الإطار الذي وضع فيه.. وطبقوا هذا المعنى على المادة اللغوية حين تصاغ على أوزان وصيغ، فكما لا يقال عن الخاتم والأسورة والعقد: إنها ذهب فقط، كذلك لا يقال عن التقوى، والمتقى، والوقاية، والتقى: إنها بمعنى الحفظ فقط؛ فكل صيغة من هذه الصيغ لها دلالة خاصة؛ فالتقوى اسم مصدر من الفعل: اتقى الدال على التكلف والمشقة، أو على الاتخاذ والامتلاك، كما نقول: استمع فلان فنفهم أنه بذل جهداً في الإصغاء متعمداً، وإذا قلنا: سمع فلان فلا يدل على أكثر من إدراك سمعه لشيء دون تكلف أو تعمق، وإذا قلنا: اختتم فلان بالفضة علمنا أنه اتخذ وامتلك خاتماً.

ومن هذين المعنيين نفهم أن كلمة " اتقى " ومنها التقوى تدل على أن صاحب هذا الحدث قد بذل جهداً في الوصول إلى اتخاذ وقاية من غضب الله، وهذا الجهد متمثل في القيام بتكاليف الشرع في تنفيذ الأوامر، والبعد عن المنهيات، فإذا قيل لنا: إن التقوى هي فعل الطاعات، واجتناب المعاصي.. علمنا أن هذا القول نتيجة لهذه الصيغة؛ أما المتقى فهو على صيغة اسم الفاعل الدال على التجدد والحدوث لهذا الفعل؛ وأما التقى فهو على صيغة الصفة المشبهة الدالة على الدوام والثبوت؛ ونخلص من هذا المعنى الذي حملته إلينا الصيغة أن من بذل جهداً في التقرب إلى الله، وحفظ حدوده.. فقد اتخذ لنفسه وقاية وحفظاً وحراسة من الله لأن من حفظ الله حفظه الله.

1 - ومن أمثلة هذا المعنى الصيغى أن القاعدة الصرفية تقول: إذا أردنا صوغ اسم الزمان واسم المكان من مصدر الفعل الأجوف اليائي جاء على وزن " مَفْعَل " وتحديد الدلالة على الزمان أو المكان يرجع إلى السياق.. وهناك رأى لبعض العلماء معتمد على كثرة السماع يرى أن المصدر الميمي أيضاً يصاغ قياساً من هذا الباب على هذا الوزن، وعلى وزن " مَفْعَل " أيضاً، مثل السير مصدرًا للفعل " سار " يأتي منه اسم الزمان والمكان على "مسير" ويأتي المصدر على " مسار " و" مسير "؛ ودلالة المصدر كما هو من البدهيات على مجرد الحدث.. وفي ضوء هذه القاعدة نقرأ قوله تعالى: (**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَعَزَّزُوا نِسَاءَ فِي الْمَحِيضِ**) فنجد كلمة المحيض - وفعلها حاض يحيض ومصدرها الحيض - من هذا الباب **فهل هي اسم زمان أو اسم مكان أو مصدر ميمي ؟** في الموضع الأول: يترجح كونها مصدرًا ميميًا، ورد بمعنى اسم الفاعل، لأن السؤال عن الحيض بمعنى الدم النازل من المرأة في العادة الشهرية،

ولذلك كان الجواب بأنه أذى يخرج الله من المرأة، وهو أذى للرجل والمرأة حين يقترب منها أثناء نزوله، أما الموضع الثاني: فإنه صالح للاحتتمالات الثلاثة، وإن كان احتمال اسمى الزمان والمكان أرجح، فالأمر بالاعتزال موجه للرجال في زمن الحيض وفي مكانه، وبذلك يكون تفصيل رسول الله لمكان الاعتزال بياناً فقط لما أجمل في هذه الصيغة، فبمجرد انتهاء زمن الحيض يحل للرجل الاقتراب منها - كما أن المحذور على الرجل في هذه الأثناء أن يقترب من موضع خروج الدم فقط وما عدا ذلك حلال.

أرأيتم هذا الإعجاز في الإيجاز بسبب إدراك معنى الصيغ.

2 - ومن هذا الباب قوله تعالى: (**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ**) فإن معاجم اللغة تدل على أن القسط بفتح القاف هو الظلم والجور، وقد ورد على هذا المعنى قوله تعالى: (**وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**) لكن هذا الفعل " قسط " إذا دخلت عليه الهمزة أفاد معنى العدل وتسمى هذه الهمزة همزة السلب والإزالة، فإن سلب الظلم هو العدل؛ فإذا قال تعالى: (**وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**) فهنا أن الله يطلب منا إزالة الظلم لأنه يجب ذلك؛ وتأتي كلمة " القسط " بكسر القاف اسم مصدر من الإقساط بمعنى: إزالة الظلم أيضاً ويكون قوله تعالى: (**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ**) بمعنى أمر بالعدل.

وبهذا المعنى الذي تدل عليه همزة السلب وردت أمثلة كثيرة عن العرب حيث يقولون: أعجمت الكتاب بمعنى أزلت عجمته، وأشكيت فلاناً بمعنى أزلت شكواه، وأقذيت عينه بمعنى أزلت القذى عنها وهكذا.

3 - ومما يتصل باسم المصدر ما نتداوله في التحذير من الغيبة والنميمة، ذلك أن بعض الوعاظ ينطقون الغيبة بفتح الغين وذلك خطأ، لأن الغيبة بهذا الضبط مصدر للفعل " غاب "، والغياب ليس داخلاً في الكبائر، إنما المنهى عنه أن تذكر أخاك بما يكره وهو غائب، والذي يؤدي هذا المعنى الفعل: " اغتاب " اغتياًباً؛ واسم المصدر منه الغيبة بكسر الغين لا بفتحها؛ ونسميه اسم مصدر لأنه دل على معنى المصدر ونقصت حروفه عن حروف فعله كما في قول الله تعالى: (**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ**) فالخيرة اسم مصدر من الفعل " اختار يختار اختياراً "

4 - قال تعالى: (**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ**) اختلف المفسرون في هذه الآية حيث يورد الجهولة سؤالاً: كيف يأمر الله المترفين بالفسق؟ فقال بعضهم: إن مفعول الأمر هنا محذوف لفهمه من السياق وكان الأصل: أمرنا مترفيها بالطاعة والإصلاح ففسقوا وأفسدوا.. وقال المحققون: إن هناك قراءة متواترة تنطق هذا الفعل بمد الهمزة: أمرنا؛ ومعناه: كثرناهم لأن الهمزة هنا نقلت الفعل من اللزوم إلى التعدى، والفعل هو " أمر " بكسر الميم وهو يدل على معنى: كثر، ومنه قول أبي سفيان للعباس يوم الفتح عن النبي صلى الله عليه وسلم: لقد أمر أمر ابن أخيك؛ أي ظهر وانتشر؛ وهذا المعنى - في تلك القراءة - هو نفسه في القراءة المتداولة لحفص على الطريقة الأخرى للتعدية، ففي القراءة الأولى تعدى الفعل بزيادة الهمزة وفي القراءة الثانية تعدى بتغيير الصيغة إلى باب: نصر ينصر، فصار المعنى: أمرنا مترفيها أي كثرناهم فيتفق معنى القراءتين؛ وتكون كلمة " مترفيها " مفعولاً به ولا حذف في الآية؛ ويتفق ذلك مع الواقع التاريخي أن الله إذا أراد إهلاك أمة كثر فيها المترفون فطغوا وأفسدوا..

5 - قال تعالى: (**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**) كثر في هذه الآية كلام المفسرين من حيث إن المادة اللغوية في اللفظين واحدة، هي الرحمة؛ فمن قائل إنه رحمان الدنيا رحيم الآخرة، أو المنعم بالنعم الكبرى والصغرى.. وهكذا؛ لكن الاحتكام إلى دلالة الصيغة هو الذي يعطينا الفرق بين اللفظين، ببيان واضح مقبول شرعاً وعقلاً ولغة؛ ذلك أن صيغة " فعلان " في الصفة المشبهة تدل على بلوغ الوصف منتهاه وذلك مثل فرحان أو شبعان، ومثل: جوعان أو ظمان؛ وصيغة " فعيل " تدل على الانتشار والذويوع مثل: كريم، حلیم، لطيف..

وحين نطبق هذا المعنى على الآية بعد تحويل فعل: رَحِمَ - بكسر الحاء - المتعدى إلى رَحِمَ بضمها اللازم للدلالة على الكثرة واللزوم والدوام، كما هو الشأن في صياغة الصفة المشبهة.. نجد أن المعنى في وصفه تعالى بالرحمن أنه اتصف بالرحمة اتصافاً ذاتياً وبلغت عنده مبلغاً لا يمكن أن يصل إليه من سواه، وفي وصفه تعالى بالرحيم يعني أن رحمته وسعت كل شيء وانتشرت وعمت كل الخلائق.

ومن هنا يقول الإمام ابن قيم الجوزية: " الرحمن صفة ذات والرحيم صفة فعل "؛ ومن هنا أيضاً لا يطلق لفظ الرحمن إلا على الذات العلية ولا يوصف به من سواه إذ هو مرادف للفظ الجلالة في مثل قوله تعالى: (**الرَّحْمَنُ*الرحمن**) *عَلَّمَ الْقُرْآنَ.

6 - في قوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم: (**فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ**)

العرب عادة الكبر والتعالى القبلية، فحين كان يُقتل عبد من قبيلة تقتل أمامه حراً من القبيلة القاتلة أخذاً بالثأر. وإذن فهي تقر مبدأ المساواة، وأول الآية كآخرها وكأنها تقول: دماء البشر متساوية في الحرمة، والعدالة تقتضى أن يُقتل القاتل بصرف النظر عن مكانته، فإذا قُتل الحر حراً قُتل فيه، وإن قتل العبد عبداً قتل فيه بلا تمييز. ومن رأى عدم التساوى بين العبد والحر ولم يوجب القصاص على الحر جعل الجملتين جملة واحدة، واعتبر الثانية مفسرة لكلمة القتلى في الجملة الأولى.. فكأنه قال: كتب عليكم القصاص في القتلى إذا كان حراً بحر أو عبداً بعبد، أما إذا اختلفا فلا قصاص على الحر إذا قتل عبداً لأنه أدنى منه مكانة.

2 - قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَاجْلَدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) اختلف الفقهاء في تحديد ما يسقط بالتوبة عن القاذف من العقوبات المفروضة عليه في هذه الآية، ويرجع اختلافهم إلى القواعد النحوية التركيبية، ذلك أن الجملة يمكن أن ينتهي فيها الخبر عن اسم الموصول: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ) عند قوله: (ثَمَانِينَ جَلْدَةً)، وتكون العقوبة التي لا مناص منها هي الجلد، ثم تبدأ جملة جديدة من قوله: (وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (على أساس أن الواو للاستئناف، ثم يأتي الاستثناء: (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا) فتكون التوبة مسقطاً للعقوبتين: عدم قبول الشهادة ووصفهم بالفسق.. فيعود القاذف بالتوبة إلى صفوف المسلمين، تقبل شهادته ولا يوصف بفسق.

كما أن الأسلوب يحتمل معنى آخر وهو أن تكون الواو في قوله: (وَلَا تَقْبَلُوا) عاطفة على قوله: (فَاجْلَدُوهُمْ) فيكون من اللازم جلدُه ورفضُ شهادته مطلقاً سواء تاب أم لم يتب؛ وتكون جملة: (وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) هي المستأنفة، وبخاصة أنها خبرية، ويكون الاستثناء منها فقط، فالتوبة إذن لا تسقط إلا وصفه بالفسق؛ والمعتمد في كلا الرأيين على ملحظ نحوي تركيبى هو اعتبار الواو حرف استئناف أو حرف عطف.

3 - قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) الدارس للغة العربية دراسة سطحية يعلم أن "إلا" لا تأتي إلا للاستثناء مما قبلها أى أن ما بعدها جزء مما قبلها.. وهذا المعنى لو طبق في هذه الآية لأدى إلى فساد في العقيدة، إذ سيكون المفهوم أنه لو كان فيهما آلهة والله منهم لم تفسدا.. لكن المتعمق في اللغة يعلم أن "إلا" هنا ليست للاستثناء ولكنها بمعنى "غير" وأن المعنى: لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا.

4 - قوله تعالى: (قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ) لو أخذنا بظاهر اللفظ في تلك الآية لكانت الكلاب المعلمة حلالاً أكلها بنص الآية، إذ أحل الله الطيبات، وعطف عليها المعلم من الكلاب؛ لكن النحو حين يتدخل بقاعدته المشهورة "قد يحذف المضاف فيقوم المضاف إليه مقامه" ترى الجملة يستقيم معناها المقصود، وتفهم على أن الذى أحل هو صيد الكلاب المعلمة لا نفس الكلاب بدليل آخر الآية: (فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ) (2) وتقدير الآية على قاعدة النحاة: أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتم من الجوارح؛ أو إعراب (وَمَا عَلَّمْتُمْ) مبتدأ، وجملة خبره.

5 - قوله تعالى: (وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا) المعهود في اللغة أن فعل النصر يتعدى بحرف الجر "على" لكنه هنا لم يقل "ونصرناه على القوم" وإنما قال: (وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ) فما السر في ذلك؟ يجيب النحاة بأن الفعل إذا تضمن معنى فعل آخر تعدى تعديته، وهنا ضمَّن فعل النصر معنى النجاة والانتقام فإن هؤلاء الذين كذبوا "نوحاً" بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وسخروا منه وهددوه بالرجم.. لا يستحقون من الله إلا الانتقام بالإغراق في الطوفان، أما هو ومن معه من المؤمنين فلهم النجاة فانظر كيف أدى التضمين هنا معانى النصر والنجاة للمؤمنين والانتقام من الكافرين.

6 - قوله تعالى: (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ) السطحيون يقولون إن الباء هنا بمعنى "من" أى يشرب منها عباد الله؛ ولكن المحققين المتعمقين يقولون: إن القرآن الكريم لم يضع حرفاً مكان حرف إلا لعلة وسبب، قد يخفى علينا في زمن، وقد يظهر في زمن آخر، وهذا سر من أسرار الإعجاز، ومن هنا تأتي قاعدة التضمين لتحل هذا الأسلوب إلى معنى جميل: ذلك أن الشارب قد يشرب الشيء وهو مكره كالمريض حين يحتسى الدواء، وقد يشربه ولا يرتوى به بل يزيده عطشاً على عطش، لكن الشارب في الجنة يشرب من تلك العين وهو متلذذ مرتو مستمتع بها وعلى هذا فالفعل "يشرب" في الآية متضمن معنى: يرتوى ويتلذذ.

7 - ومن هذا الوادى قوله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة: «أرحنا بها يا بلال» إذ لم يقل: أرحنا منها؛ من حيث إن الباء تفيد السبب، فهي التي تحقق الراحة.

8 - ومنه كذلك قوله تعالى: (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) ولم يقل: "الذين هم في صلاتهم ساهون" فالسهور عن الصلاة ترك لها.

9 - كما أن من فوائد التضمين فهم قوله تعالى: (لَلْأَقْعَدَنَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) من حيث إن الفعل "قعد" يتعدى بحرف الجر، ولا يتعدى بنفسه، وهو هنا قد تعدى إلى المفعول به بنفسه، فجعل (صِرَاطَكَ) منصوباً به، ولا يتأتى هذا إلا بتضمين "أقعد" معنى "ألزم" أي لألزم صراطك المستقيم قاعداً فيه أوسوس لهم أن يتركوه.. ذلك أن القعود من شأنه أن يكون طارئاً متجدداً، يفارقه المرء إلى المشى، وإلى الوقوف، وإلى النوم، لكن الشيطان لا يفارق الطريق المستقيم ملازماً إياه، يصد الناس عنه، ولا ييأس من ذلك ولا ينتقل عنه؛ والذي أفادنا ذلك هو التضمين.

10 - من هذا الباب أيضاً قولنا حين الرفع من الركوع: "سمع الله لمن حمده" فإن الفعل "سمع" متعد بنفسه إلى المفعول قال تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) وقال سبحانه وتعالى: (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ) ولكنه هنا تعدى باللام لملحظ هام، ذلك أن السماع قد يكون لشكوى كما في الآية الأولى، وقد يكون لقول مكروه منكر كما في الثانية.. ولكن السماع هنا تضمن معنى الاستجابة، إذ وعد الله الشاكين بالمزيد من النعم في قوله سبحانه: (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) فمن يحمد الله يكون طالباً بطريق غير مباشر أن يزيد الله من فضله، ومن هنا كانت اللام في "سمع الله لمن حمده" أي سمع واستجاب له.

11 - قوله تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَذِلَّةً وَرِبَاعَ) اختلف الفقهاء في اعتبار التعدد للزوجات هل هو الأصل؟ أو الأصل الأفراد؟ ولكل من الرأيين في هذه الآية دليل.. فمن اكتفى بجواب الشرط ورأى أن الجملة قد تمت عند قوله: (فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) كانت الآية دالة على أن الأصل هو ما يرضى الزوج ويعفه، سواء كانت واحدة أم أكثر.. وتكون الجملة الثانية محذوفة العامل وكأنه قال: "لماذا تتمسكون بالزواج من اليتامى وقد أبحث لكم مثنى وثلاث ورباع والنساء غيرهن كثير" .. أما من جعل كلمة "مثنى" وما بعدها حالاً من "ما طاب لكم" فإنه رأى أن الأصل التعدد؛ فانبني كل رأى على وجه نحوي.

12 - قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) لو جعلنا الجار والمجرور (عَلَيْكُمْ) متعلقاً بالفعل (حَرَّمَ) ووقفنا على ذلك وبدأنا تعداد المحرمات من قوله: (أَلَّا تُشْرِكُوا).. كان عدم الشرك محرماً مما قد يفيد أن الشرك هو المطلوب، أما إذا جعلنا الجار والمجرور متعلقاً بمحذوف هو الخبر مقدماً على المبتدأ وهو المصدر المؤول من قوله: (أَلَّا تُشْرِكُوا) كان المعنى: عليكم عدم الإشراك؛ أي أنتم ملزمون بعدم الإشراك ويستقيم المعنى في كل ما سيأتي بعد ذلك من مثل: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)؛ ويمكن أن تكون "عليكم" اسم فعل أمر بمعنى الزموا عدم الإشراك... إلخ.

الأثر المعنوي لمعرفة السياق

من ذلك:

1 - قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا) المعروف في الأسلوب العربي أن المشبه به أقوى في وجه الشبه من المشبه، والمفروض أن الثروة الاقتصادية النظيفة تقوم على التجارة في البيع والشراء، وأن المكسب الناتج من البيع هو الأصل.. لكن الآية هنا تحكى عنهم تشبيهاً مقلوباً فيشبهون المكسب الناتج عن البيع بربح الربا.. إشارة إلى أن الوضع الاقتصادي عندهم قد انقلب رأساً على عقب، فصار الربا عندهم هو مصدر الثراء، وأن البيع ملحق به، وهذا محل السخرية منهم والعجب من أوضاعهم، حيث يعقب الله على ذلك: (وَاحِلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا). ()

2 - قوله تعالى: (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) أسلوب الحصر بالنفي والاستثناء أو بـ "إنما" أسلوب توكيدي يقصر حكماً على شيء أو شيئاً على حكم.. وعند هذه الآية وقف بعض الفقهاء الأجلاء أمام هذا الحصر الإلهي للمحرمات في أربعة أشياء فقط، مع أن الحديث النبوي الصحيح أضاف إليها كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير والحمر الأهلية وغير ذلك.. فتساءل كيف يحصر الله ما حرم في أربعة ثم يضيف النبي إليها؟.. هل تنسخ السنة القرآن؟ وعلى ذلك رأى أن كل ما حرمه النبي غير هذه الآية يدخل في باب الكراهة التحريمية.

أما الإمام الشافعي فإنه انتفع بقواعد البلاغة هنا في تقسيم القصر إلى حقيقي وإضافي.. واستحضر ما كان عليه

الجاهليون من اعتراضهم على المسلمين فى تحريم الميتة حيث قالوا: كيف تحلون ما قتلتم وتحرمون ما قتل الله؟ وفى تحريمهم للدم مع أنه خلاصة الغذاء، بل إنهم كانوا يفسدون الإبل، ويشوون الدم الناتج عن الفصد ويقدمونه للضيوف، والمثل المشهور عن حاتم: هذا فصدى أنه، وفى تحريمهم للخنزير مع لذة لحمه وشبهه بالأنعام، وفى تحريمهم لما ذبح للألهة مع أنه قربان.. وإذن فقد كان الخلاف بين المسلمين والكفار حينذاك منصباً على هذه الأربعة، فجاءت الآية ومثيلاتها فى قوله تعالى: (**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ**) لتقول لهم: إن ما ادعيتم حله هو الحرام بعينه؛ فيكون ردّاً على معتقداتهم وليس حصراً حقيقياً؛ كما يكون بينك وبين أحد خلاف فى تفضيل عالم على آخر فتقول له: إنما العالم محمد؛ فأنت هنا لم تنف العلم عن غير محمد، ولكنك حين نظرت إلى علمه وإلى علم غيره وجدت علم غيره كلاشىء بالنسبة لعلم محمد، فادعيت أن محمداً هو العالم.. وكذلك هنا ما حرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة لما حرّمه الله شىء يسير فلا نسخ.

3 - قوله صلى الله عليه وسلم: « **ذُكَاةُ الْجَنِينِ ذُكَاةُ أُمِّهِ** »؛ اختلف الفقهاء فى فهم معنى الحديث ففهمه البعض على أن ذكاة أمه ذكاة له فيؤكل، فلا تشبيه، وفهمه البعض الآخر على معنى التشبيه أى أنه يذكرى مثل ذكاة أمه؛ الأول أحلّ الجنين إذا سقط بعد ذبح أمه ميتاً، والآخر حرّمه..

4 - قوله تعالى: (**إِنَّ الصَّفَاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا**) قال عروة بن الزبير لخالته عائشة أم المؤمنين بعد أن قرأ هذه الآية: إذن فما على أحد جناح فى ألا يطوف بهما؛ قالت عائشة: بئس ما قلت يا ابن أختى؛ لو كان كذلك لقال: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما.. ذلك أن المسلمين تخرجوا أن يسعوا بين الصفا والمروة بعد إسلامهم، لأن الصفا كانت موضع الصنم إساف والمروة كانت موضع نائلة وكان السعى بينهما فى الجاهلية تعظيماً لهذين الصنمين، فلما تأثموا من ذلك جاءت الآية ترفع عنهم الحرج والجناح فى الطواف حولهما

5 - قوله تعالى: (**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**) يستدل بها الكثيرون على فضل العالم على الجاهل مطلقاً ويحملون دلالة السياق فيما قبلها، فإن أول الآية يقول: (**أَمَنْ هُوَ قَانَتْ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**) بداية الآية ونهايتها تتحدث عن أثر العلم فى سلوك الإنسان، فالعالم الحق هو الذى يخشى ربه، فيظل قائماً وساجداً طول الليل داعياً وراجياً وخائفاً، وهو الذى يتذكر حق ربه ويتدبر آياته؛ وإذن فكم من عالم كان الجاهل خيراً منه، ذلك الذى لا يعمل بما علم، وهو أول من تسعر بهم نار جهنم يوم القيامة.

6 - قوله تعالى: (**مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ**) يستدل بها المحدثون على حرية العقيدة فى الإسلام، فمن اختار الكفر فلا حظر عليه، ويبطلون حد الردة، وذلك من خطل التفكير

ومجارة الحضارة الغربية ولّى عنق النصوص لتساير الحاضر.. وقرينة السياق هنا تفيد أن المقصود هو التهديد لمن يكفر بدليل أن ما بعد هذه الجملة قوله تعالى: (**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا**)

ومن أمثال هذا قوله تعالى: (**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**) فهل معنى الأمر هنا إباحة للإنسان أن يفعل ما يشاء دون حساب أو أن ختام الآية يهدده برقابة الله.

7 - قوله تعالى فى سورة البقرة: (**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**) وقوله: (**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ**) وقوله: (**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ**) الإتيان بهذه الأمور الثلاثة بلفظ واحد، وبتعبير متماثل، هو الكتابة والإلزام بقوله (**عَلَيْكُمْ**) يلفت النظر إلى العلاقة بين هذه الأوامر، فكل منها مكتوب وموثق، والأمر به ملزم، وكل منها مكروه، ونحن مكرهون عليه لمصلحتنا التى لا نعلمها كما يعلمها ربنا.. وإذا كان لنا أن نستنبط العلاقة بينها فإننا نرى الصيام محققاً للأمن النفسى، حيث يعيش الصائم فى رقابة ربه، ويشعر باستعلائه على المادة، وأنه مادام مع الله فلا يخاف من شىء ولا على شىء؛ والقصاص محقق للأمن الداخلى فى المجتمع من حيث إن المجرم حين يرى غيره قد اقتص منه لا يقدم على إجرامه ومن هنا جاءت الآية: (**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**)؛ أما الجهاد فإنه يحقق الأمن الخارجى للأمة إذ ما تركت أمة الجهاد إلا أذلها الله، وإذن فمجموع هذه الأوامر هو الذى يحقق الأمن الشامل للفرد وللأمة.

هذا وللتعمق فى اللغة أثره فى فهم كل جملة فى كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما انحرف بعض

شبابنا عن الإسلام الصحيح إلا بجهلهم بمعطيات اللغة العربية، سواء في النصوص الخاصة بالعقيدة أم بالشريعة أم بالقصص القرآني.. وإذا استرسلنا في ذلك فسنجد أنفسنا أمام كلام الله عاجزين عن الوفاء بحقه.. وإن أنس لا أنس ذلك الشاب المتحمس حين قال لي: أنتم تقولون إن الأنبياء معصومون من الشرك قبل النبوة وأنا أتيك بأية في كتاب الله صريحة في نسبة الشرك لنبي ورسول مشهور.. قلت له: هات الآية يا بني، قال: يقول سيدنا " شعيب " : (**قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا**) فهو هنا يعترف أنه كان في ملتهم قبل الرسالة، وبأنه لن يعود إليها؛ قلت له: ما أجهلك بلغة قومك يا بني.. إذا كان فهمك هذا صحيحاً فكل الرسل - وليس شعيباً وحده - كانوا مشركين، ذلك أن الله عز وجل يقول في سورة إبراهيم: (**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**) فكل الرسل هددوا بالإخراج من أرضهم، أو الدخول في ملتهم.. فهل كان إبراهيم مثلاً مشركاً قبل الرسالة؟ إن الجهل باللغة هو الذي أدى إلى هذا الفهم السقيم فإن اللغة تقول إن الفعل " عاد " إذا تعدى بحرف " إلى " كان بمعنى: رجع أما إذا تعدى بالحرف " في " فإنه بمعنى " دخل " وإذن فمعنى (**أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا**) أي تدخلن، ومعنى (**إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ**) : إن دخلنا فيها بعد إذ نجانا الله من الدخول فيها.. إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين حدد ثلاثة أمور للشعور بلذة الإيمان جعل منها: « **وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يَقْدَفَ فِي النَّارِ** » فهل معنى ذلك أن المرء لا يدرك لذة الإيمان إلا إذا كان كافراً وأسلم؟!

إن فهم اللغة التي نزل بها الوحي هو السبيل الوحيد لفهم مراد الله عز وجل.. وكم من شبهات بنيت على مغالطات لا يحلها إلا الاستعمال العربي الفصيح..

نصيحتي للشباب المتحمس لدينه المستعد لتبليغ دعوته أن يلتزم بما ألزمتنا به الله أن يكون بلاغنا مبيناً، وهو لن يكون كذلك إلا إذا فهمنا خصائص هذا البيان، وفهمنا أسلوب نبينا الذي حصره الله عز وجل في قوله: (**أَنَّمَا عَلَى رُسُلِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**) .

فهيأ - يا أصحاب الدعوة - إلى فقه ديننا بلغة قرآننا، وسنة نبينا، حتى نكون على بصيرة من أمرنا، وحتى نكون أهلاً لتبعية نبينا، قال تعالى: (**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين ومن المقصرين في حق رب العالمين. و صلى الله وسلم وبارك على خاتم رسله وخير خلقه أجمعين

كاتب المقالة : منقول

تاريخ النشر : 12/06/2011

من موقع : موقع الشيخ الدكتور/ محمد فرج الأصفر

رابط الموقع : www.mohammedfarag.com